الأستاذة: كعبش ريمة

المقياس: مقاربات نقدية معاصرة

السنة: الثانية ليسانس

التخصص: دراسات أدبية

بتاريخ:08 -04-2021

المحاضرة رقم:5 سوسيولوجيا النص

تمهيد

ظلت إشكالية العلاقة بين الأدب و المجتمع محور جدال و اختلاف، باختلاف آراء المفكرين و الباحثين و النقاد منذ عصر أفلاطون، و قبل ظهور مصطلح علم الاجتماع بزمن طويل، و استمرت هذه الإشكالية عبر العصور إلى عصرنا هذا و منذ إنشاء الجامعات الحديثة في أوربا و ظهور علم الاجتماع، تم فتح فروع جديدة في علم الاجتماع و منها فرع خاص بالأدب و النقد، هو علم اجتماع الأدب(أو سوسيولوجيا النص) الذي أصبح اسمه مألوفا لدى قراء كثيرين.

و إذا كان علم الاجتماع من العلوم الحديثة، و علم اجتماع الأدب علما جديدا في ميدان علم الاجتماع ما زال في طور النشأة و التكوين, فإن علم اجتماع النص لم يكتمل بعد و هو في تطور مستمر، و قد حاول الفرنسي بيير زيما (Pierre Zima) منذ السبعينيات إلى الآن تحديد مفاهيمه النظرية و أدواته المنهجية الجديدة و تطبيقها على نصوص أدبية، كما يحلم علم اجتماع النص بحسب زيما إلى تطبيق مفاهيمه و أدواته المنهجية على نصوص فلسفية و دينية و...

ظل علم الاجتماع و الأدب بعيدين عن بعضهما البعض إلى وقت قريب نسبيا، و من هذا التباعد التعارض بين المدخل الفردي الخاص بعلم النفس و التحليل النفسي من جانب، و المدخل الجماعي لعلم الاجتماع من جانب آخر، و هذه الإشكالية ما زالت بارزه في النقد الحديث إلى الآن، يحاول علم اجتماع النص تجاوزها من خلال الجمع بين المدخل الاجتماعي و مدخل التحليل النفسي يتجه بهما إلى الوضع الاجتماعي اللغوي، اللهجة الجماعية و البنى الدلالية و السردية للنص التخيلي.

و بعد إزالة الحواجز بين العلوم الاجتماعية عبر الدارسون الجدد فيما بين التاريخ و الأنثروبولوجيا و الفن و السياسية و الأدب و الاقتصاد و تمت الإطاحة بقاعدة التخصص التي كانت تحرم على العلوم الإنسانية التعامل مع أسئلة السياسة و السلطة مما هو في صلب حياة الناس مما أغضب حراس المؤسسة و أثار موجة من التصدي للتاريخانية الجديدة ومصادر التأثير فيها.

و مع الإقدام على إزالة الحواجز التقليدية بين علم الاجتماع و الأدب، جاءت الدعوة إلى تخصص جديد يحمل اسم علم اجتماع الأدب كميدان جديد من ميادين علم الاجتماع يعد أحد الملامح المميزة للاهتمام بهذا العلم من خلال تزايد اهتمام الباحثين في علم الاجتماع منذ عقد الستينيات.

و قد كانت هناك محاولات كثيرة لتحليل الأشكال الأدبية في إطار سياق اجتماعي، و لكن أغلبها كانت تنطلق من معطيات الفلسفات الوضعية و المادية التي ترى في الأدب تصويرا للواقع أو انعكاسا له، إلا أن علم اجتماع النص بحسب زيما يرى أنه لا يمكن وصف علاقة النص بالمجتمع، بالاعتماد على هذه الأفكار الناجمة عن المطابقة أو التشابه غير المقنع الذي يختزل النصوص بأفكار مفهومية لا يمكن التحقق منها. إن علم اجتماع النص يركز على مسألة ما إذا كان من الممكن وصف العلاقة بين النص الأدبي و سياقه الاجتماعي على المستوى الإمبريقي. و لا يتحقق وصف كهذا إلا إذا ظهر الأدب و المجتمع في منظور لغوي.

1- مفهوم سوسيولوجيا النص:

بناء على طرح زيما في ربطه للنص بالواقع الاجتماعي و مراعاة هذا الأمر خلال الدراسة و التحليل يتضح أن سوسيولوجيا النص منهج يهتم بعلاقة الأدب بالمجتمع من منظور اجتماعي لغوي مطور عما كان من ذي قبل، لكنه يتجاوز في أطروحاته النظرية و المنهجية مفاهيم و مناهج علم اجتماع الأدب و بخاصة الدراسات التقليدية التي تتجه نحو المطابقة المباشرة (الانعكاس و التشابه) بين مضامين النص الأدبي و الوقائع الاجتماعية من خلال التركيز على المعطيات الخارجية، المرجعية و التوثيقية، و إهمال البنى النصية: الدلالية و السردية التي أعطاها علم اجتماع النص أهميتها في تحليل النصوص.

كما يتحدد مفهوم سوسيولوجيا النص أو علم اجتماع النص لدى النقاد الاجتماعيين المحدثين –و بخاصة بيير زيما – بأنه العلم الذي يهتم بمسألة معرفة كيف تتجسد القضايا الاجتماعية في المستويات الدلالية و السردية للنص، و ليس النص الأدبي فحسب بل يتجاوز الاهتمام إلى البنى اللغوية (الخطابية) للنصوص النظرية و الأيديولوجية و غيرها، فعلم اجتماع

النص بوصفه علم اجتماع نقدي يسعى إلى تحديد علاقة الخطاب بين النظرية و الأيديولوجية، و بين النظرية و التخييل، و هو في الوقت نفسه نقد للخطاب الذي تتعدى اهتماماته ومشاغله المجال الأدبي, كما أنه يتجاوز كونه مجرد منهجية في تحليل النصوص أو تقنية ذات مردود فكري إلى كونه نقدا للمجتمع.

2- نشأة سوسيولوجيا النص:

تمتد جذور الاهتمام بالعلاقة بين الأدب و المجتمع إلى فترة تسبق نشأة علم الاجتماع، بل قبل وضع أوجست كنت لمفهوم علم الاجتماع و تحديده، أي منذ افلاطون.

فعلم الاجتماع و الأدب نسقان من أنساق المعرفة، و إن اختلف كل منهما عن الآخر، و لكن ثمة عامل مشترك يجمع بينهما، فالاهتمام بعلاقة الأدب بالمجتمع يعني إقامة الجسور بينهما و الاعتراف بالتداخل و العلاقة المتبادلة بين الأدب والمجتمع. و تتبع العلاقة بين الأدب و المجتمع أمرا يطول الحديث عنه و يحتاج إلى مؤلفات وحسبنا هنا عرض بعض الأفكار التي ساهمت في ظهور علم اجتماع النص.

يرى بيير زيما أن علم الاجتماع قد سعى- منذ نشأة الماركسية و علم اجتماع المعرفة الذي أسس له كارل مانهايم (Karl Mannheim) فيما بين الحربين العالميتين- إلى تفسير النصوص السياسية و الفلسفية و الأدبية بالنظر إلى سياقاتها الاجتماعية، و لعل كثيرا من الآراء مهد الطريق لعلم اجتماع النص، على سبيل المثال النقد الذي وجهه ماركس للفلسفة الهيجلية، و التصور المحافظ الذي أورده كارل مانهايم الذي ينطوي على ما دعاه ((إعادة بناء النظرة إلى العالم من الوجهة الاجتماعية. و كان جورج لوكاش قد طرح بدوره المسألة عينها و لا سيما الصلة بين الأفكار السياسية و الفلسفية أو الجمالية و بين المجتمع الذي أوجدها.

أما لوسيان جولدمان فخلص إلى افتراض تناظرات بنيوية ما بين الأعمال الفلسفية أو الأدبية و بين بعض من ((رؤى العالم)) مثل ((الجنسينية المأساوية)) التي أقام بينها و بين أفكار الفيلسوف الفرنسي باسكال، و مسرحيات راسين التراجيدية رابط انتماء إذ عدها تعبيرات متسقة تماما مع هذه الرؤية للعالم، و دالة عليها. و يرى جمال شحيد أن جولد مان يميز وجود ثلاث حلقات متكاملة، هي الطبقة الاجتماعية و رؤيةالعالم، و الأعمال الأدبية.

و تبدو رؤية العالم حلقة وسيطة بين الطبقة الاجتماعية و الأعمال الأدبية. فالطبقة تعبر من خلال رؤيتها للعالم، و هذه الرؤية تعبر عن نفسها عبر العمل الأدبي. و يستنتج جولدمان أن مسرح راسين كان تعبيرا أدبيا للأيديولوجيا الجانسينية.

و بحسب زيما فإن علم اجتماع ((المضامين)) الأدبية أغفل الإشارة إلى دور الكلام، و الكلمة في الصنيع الأدبي، تمثلا بعلم الاجتماع الماركسي ذي الأصول الهيجلية الذي أصر على اختزال النصوص إلى مجرد مفاهيم، و على استكشاف روابط متواطئة ما بين هذه المفاهيم و بين مراجعها الاجتماعية.

و كان الشاعر الفرنسي مالا رمية (Mallarme) قد أشار إلى دور الكلمات في نظم الشعر قبل ظهور علم اجتماع الأدب من خلال رده على صديقه الفنان ديجا، الذي جهد في نظم السونيتات، و الذي شكا له شح الأفكار في ذهنه، قائلا ((... ليس بالأفكار تنظم الأبيات، ديجا ,(Degas)و إنما النظم يكون بالكلمات)).

و بيير زيما يعتمد وجهة النظر المالارمية مع قلب المنظور من خلال التساؤل عن الطابع الألسني للأيديولوجيات و الفلسفات و النظريات الاجتماعية، أو ليست هذه جميعا مصنوعة من كلمات شأن الأبيات الشعرية التي أحال إليها مالارمية؟ ثم أن هذه الكلمات أليست بدورها مرتبطة ببنيات دلالية، تصير لها الأرجحية في صياغة المساقات الدلالية و السردية التي يتألف منها خطاب معين؟ و يشير زيما إلى أهمية هذه الاسئلة بالنسبة لعلم اجتماع النص.

3- رواد سوسيولوجيا النص:

يؤكد زيما أن الفضل في إقامة رابط ألسني بين الأدبي و الاجتماعي يعود إلى الشكلانين الروس، و لاسيما تينيانوف (Tynianov) و زملاءه الذين بذلوا جهودا جبارة لإيضاح الصلات بين الأدب و المجتمع، و المثال على ذلك ما أورده تينيانوف ((أن الحياة الاجتماعية تقيم علاقة ترابط مع الأدب من خلال المظهر اللغوي. ((وبناء عليه شرع زيما منذ أوائل السبعينيات في إعداد علم اجتماع النص تحقيقا لهذا المشروع القديم الذي لا تأخذه الغالبية العظمى من علماء اجتماع الأدب باعتبارها أو هي لا ترغب في إحداثه.

و الواقع أن هذه العلاقة المتبادلة بين الأدب و المجتمع بحسب زيما إنما تقوم من خلال النشاط اللساني، وأن ((للأدب وظيفة كلامية فيما يخص الحياة الاجتماعية، ((ويأخذ زيما على الشكلانين الروس أنهم لم ينظروا إلى المجتمع أبدا على أنه مجموعة من اللغات الاجتماعية المتعددة الصوت و المتداخلة فيما بينها، أو المتناسقة تناسقا شديدا يؤدي بها إلى التناحر و التصارع، و ذلك رغم إنجازهم الكثير من الدراسات و لا سيما في الأدب الروسي، و لم يخطر في بالهم على الإطلاق أن للأيديولوجيا و النظريات طابعا ألسنيا يقربها من النص الأدبي، فالأدب، إذ يستوعب الأيديولوجيات و النظريات، و يحاكيها طورا و يحرفها تارة، فهو يعمد إلى

ذلك بوصفها لغات، كما فعل جون بول سارتر مع الأيديولوجيات الإنسانوية التي راح يعارضها مستهزئا بها في كتاب الغثيان .

كما يعود الفضل في احداث علم اجتماع النص إلى ميخائيل باختين (Bakhtin) من خلال فكرته القائلة:((بأن غالبية ملفوظات الخطاب لا يمكن أن تدرك إلا في سياق حواري)). لقد استطاع باختين أن يقدم فهما مختلفا للنص الروائي ينطلق من النظر إليه بوصفه شكلا متميزا عن غيره من الأشكال الأدبية، من حيث الطبيعة الحوارية و التعددية الصوتية التي تجسد الصراع الاجتماعي: صراع المصالح الجماعية للجماعات المختلفة، و صراع الإيديولوجيات.

غير أن هذا الفهم الباختيني للنص الروائي المبني على نظرة ثاقبة لعلاقة الأدب بالمجتمع عبر نافذة اللغة، ظل مجهولا لمدة طويلة من الزمن، و لم يجد من يتلقفه و يبني عليه تصورا نظريا و نقديا لعلاقة الأدب بالمجتمع، من خلال مظهرها اللغوي إلى أن جاء الباحث المفكر الفرنسي بيير زيما الذي استفاد من مفاهيم و أطروحات باختين، و أعاد صياغتها بمفاهيم و أطروحات نظرية و منهجية جديدة تخدم مشروعه في إحداث علم اجتماع النص.

و بعد زمن طويل استعادت سيميائية جريماس (Greimas) و بريتو (Prieto) و هاليداي (Halliday) و آخرين، الأطروحة الشكلانية السابقة، و أضافت إليها بعدها النظري. و عليه يرى زيما أنه بات ينظر إلى الفلسفات، و الأيديولوجيات السياسية و النظريات العلمية على أنها لغات، شأن النصوص الأدبية.

و قد أتاحت لهم وجهة النظر ((النصية)) هذه أن يتبصروا في المجتمع على ضوء مظهره الكلامي، و من دون أن يختزلوه في نصوص بذاتها. و على هذا الأساس فإن مصالح المجموعة أو الطبقة لم تعد مستبعدة و إنما صارت الآن محددة على المستوى اللساني و الخطابي.

و بالعودة إلى نظرية جريماس فيما يخص مصطلح العوامل في الخطاب: العامل الذات، العامل المعاكس للذات، العامل الموضوع، العامل المرسل، العامل المعاكس المرسل، العامل المساعد، العامل المعارض. فإنها تمثل أدوارا اجتماعية يعكس توزعها ترتيبات اجتماعية بينة.

إن ما يستحق الاهتمام من وجهة نظر علم اجتماع النص بحسب زيما، هو الفكرة التي طرحها جريماس و وافقه عليها بريتيو، ومفادها أن البنى الدلالية الكامنة خلف الخطب هي التي تنطوي على المصالح الجماعية، و في الوقت نفسه تحدد الاتجاه العام لمسار النص السردي.

و كان هاليداي قد لخص مشروعه لقيام علم اجتماع النص بوصفه سيمياء اجتماعية، إذ نوه إلى نظير جريماس بأولية المخطط الدلالي و التنظيم الاستبدالي للمباشرة بأي تحليل اجتماعي.

و كان جريماس قد استخدم مفهوم اللهجة الجماعية و عدها لغات مختصة وربطها بمجموعات سيمائية، و لكن زيما يرى أن اللهجة الجماعية تتعدى كونها لغات مختصة على غرار اللغة التقنية أو العلمية، و اللهجة الجماعية بحسب زيما تشكل ذخرا على الصعيد المعجمي و الدلالي، و السردي تتيح لفريق اجتماعي أو لفرق عدة متقاربة النسب أن تطرح مصالحها و تجسدها من خلال الخطاب.

و قد استفاد الباحث الفرنسي بيير زيما من مفاهيم مناهج لسانية و نقدية مختلفة من خلال إدماجه بعضا من عناصر اتجاهين نقديين هما السيميائية، و علم الاجتماع أفضى به إلى علم اجتماع النص الذي عمل فيه منذ السبعينيات و لا يزال يعمل على بلورة مفاهيم و أدوات منهجية جديدة قادرة على وصف العلاقة بين الأدب و المجتمع دون التضحية بأحدهما لصالح الآخر.

ومن أجل استكمال الوصف الاجتماعي للآليات النصية (الدلالية و السردية) يرى زيما ضرورة تصوير العالم الاجتماعي بمجموعة من اللغات الجماعية. ثم الانطلاق من الفرضية الأساسية لعلم اجتماع النص القائلة بأن اللغات الجماعية تستوعبها و تحولها النصوص الأدبية التي تؤدي فيها هذه اللغات دورا هاما.

وفي هذه الحالة يجب التركيز على مسألة ما إذا كان من الممكن وصف العلاقة بين النص الأدبي و سياقه الاجتماعي على المستوى الأمبريقي. و لا يتحقق وصف كهذا بحسب زيما إلا إذا ظهر الأدب و المجتمع في منظور لغوي.

4- إجراءات سوسيولوجيا النص:

يرى عبد المغني دهوان أن ما يميز عمل بيير زيما عن أعمال سابقية هو حرصه على التعامل مع اللغة وحدها بوصفها المعطى المادي الوحيد (القابل للدراسة) الذي يربط النص الأدبي بواقعه الاجتماعي. إذ مكنه ذلك من تجنب إقحام تصورات و مفاهيم نظرية – خارج نصية – غالبا ما تكون وليدة تصورات و أفكار الناقد، و لا علاقة لها ببنية النص الأدبي، و هذا ما كان يحدث عادة في الدراسات السابقة. و ليس المقصود بالاعتماد على اللغة – في منهج زيما – وصف بنيتها الساكنة كما يتم في الدرس الألسني و الأسلوبي, و إنما النظر في طبيعتها المتغيرة في الواقع الاجتماعي و التاريخي، و كيفية تمثيلها لمصالح جماعات متصارعة عبر

لهجات جماعية مختلفة تخص تلك الجماعات، ثم النظر في كيفية استيعاب النص الأدبي لتلك اللهجات و طريقة ظهورها في البنيات النصية المختلفة، و يتم ذلك بتوظيف مفاهيم سيميوطيقية ذات أبعاد اجتماعية، ضمن حركة جدلية.

المراجع:

- ينظر: **صالح أحمد: علم اجتماع النص الأدبي: مفاهيم نظرية وأدوات منهجية(مقال إلكتروني)**

- ينظر: الحسين قصي: سوسيولوجيا الأدب، دار و مكتبة الهلال للتوزيع و النشر، بيروت، لبنان. 2009

- ينظر: باختين ميخائيل: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، القاهرة، مصر،1987.

- ينظر: بون أرون فيالا: سوسيولوجيا الأدب، ترجمة محمد علي مقلد، دار الكتاب الجديد. بيروت، لبنان. 2013

- ينظر: بيير زيما: النقد الاجتماعي، ترجمة عائدة لطفي، دار الفكر للدراسات و النشر المعاصرة، 1990